

التعاطف الوجداني: كيف نفهم الآخر؟

Empathy: How do we understand the other?

لعماري نجود¹

جامعة عبد الحميد المهري قسنطينة 2 (الجزائر)

lamarinoudjoud@yahoo.com

أ.د. بوسنة عبد الوافي زوهير

جامعة عبد الحميد المهري قسنطينة 2 (الجزائر)

a.boucenna@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2022/07/20 القبول 2022/10/21 النشر على الخط 2022/11/05

Received 20/07/2022 Accepted 21/10/2022 Published online 05/11/2022

ملخص:

يتم يلعب التعاطف الوجداني دورا مركزيا في بناء العلاقات الإنسانية، كما يعتبر من المفاهيم المفتاحية في فهم الآخر. فكل الأبحاث التي حاولت تحديد معناه أكدت أنه القدرة على فهم انفعالات، ومشاعر، وتجارب الآخر ووضع الفرد نفسه في مكان الآخر، فإلى وقت قريب لم يكن هناك إجماع حول هذا المفهوم، إلا إنه يمكن أن يعني حاليا: عدوى انفعالية بسيطة، قدرة معرفية لتمثل جميع الحالات النفسية للآخر، قدرة الإصغاء للآخر، والتفاعل عند معاناة الآخر. الهدف من هذا المقال هو تقديم لمحة نظرية عن التطور التاريخي للتعاطف الوجداني، ثم تحديد مفهومه وإزالة الغموض الموجود بينه وبين بعض المفاهيم المشابهة له. والتعرف على المكون الانفعالي والمكون المعرفي للتعاطف الوجداني وكذلك التعرف على العدوى الانفعالية والقطيعة الانفعالية، وأخيرا سوف نعرض ما توصلت إليه الأبحاث الحديثة في علم النفس العصبي- المعرفي واكتشاف الأعصاب المرآيا والدور الذي تلعبه في تحقيق الروابط التعاطفية بين الأفراد.

الكلمات المفتاحية: تعاطف وجداني ؛ عدوى انفعالية ؛ قطيعة انفعالية ؛ أعصاب مرآيا.

Abstract:

Empathy plays a central role in human relationships, and is considered one of the key concepts in understanding the others. All the research that tried to determine its meaning confirmed, that it is the ability to understand the emotions, feelings, and experiences of the others and for someone to put themselves in the place of the other. The aim of this article, is to provide a theoretical overview of the historical development of empathy, then define its concept and remove the ambiguity between it and some similar concepts and Identifying the emotional component and the cognitive component of emotional empathy. It also identifies emotional contagion and emotional rupture, finally, we give the results of contemporary research in neuropsychology and the discovery of "mirror neurons" which are essential for establishing empathic links.

Keywords: Empathy ; Emotional contagion ; Emotional rupture, Mirror neurons.

1. مقدمة:

من خلال الدراسة التي قمنا بها والتي هدفت إلى الكشف عن الخصائص النفسية (المعرفية، الوجدانية، السلوكية) للمراهق المتمدرس بمرحلة التعليم المتوسط والذي يتراوح عمره ما بين 13 إلى 15 سنة، وأثناء بحثنا في التراث الأدبي عن الدراسات المشابهة التي تبحث في نفس السياق أي العلاقة الارتباطية بين السلوك العنيف عند المراهق المتمدرس، والجانب الوجداني والمعرفي وجدنا دراسة لفافر وفورتين (Favre & Fortine, 1997) وهي دراسة متعددة الأبعاد أجريت في السنوات (1994-1997) قام بها الباحثان في كندا وفرنسا على مراهقين وذلك بتقديم بورتريه (portrait) نفسواجتماعي- معرفي (psychosocial et cognitif) للمراهق العنيف (من وجهة نظر أساتذتهم) وقد توصلنا إلى: -وجود ارتباط قوي بين العدوانية و"القلق-الاكتئاب" من جهة والطريقة الدوغمائية (dogmatique) لمعالجة المعلومات من جهة أخرى.

-أن العنف هو سلوك إدماني أو ما يسمى بالإدمان بدون عقاقير أو "الإدمان الذاتي" (toxicomanie endogène) فهو مرتبط بصعوبات التعلم وبالعجز في التنظيم الذاتي (déficit d'autorégulation)، وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى تعريف إجرائي للعنف وهو أنه: "حاجة قهرية لجعل الآخرين في حالة ضعف وعجز مقابل الإحساس والشعور بالقوة والتخلص من القلق والتوتر"¹.

إن الأبحاث السابقة استخدمت عددا كبيرا جدا من المتغيرات والتي ثبت أنها غير عملية لدراسة تأثير برنامج تدريبي للأساتذة بهدف الوقاية من العنف لدى التلاميذ، إضافة إلى هذا ولصعوبة الوصول إلى هذه النتيجة أعيد توجيه البحث حيث تم متابعة التلاميذ بطريقة غير مباشرة لتجنب معرفتهم بأنهم مهتمون بمتابعة سلوكهم العنيف، لذلك كانوا بحاجة لمؤشر مُفَنَع للعنف. فقد أظهر مهرابيان (Mehrabian; 1997) أن التعاطف الوجداني (l'empathie) يرتبط ارتباطا سلبيا بالسلوك العنيف (comportement violent) وهذا يعني أن التعاطف الوجداني أو القدرة على تمثل اتجاه ومشاعر الآخرين بطريقة مجدية لا تتوافق بشكل أو بآخر مع السلوك العنيف.²

ومن ثم، فإن زيادة القدرة على التعاطف الوجداني يمكن أن توفر مؤشرا للوقاية الفعالة من العنف بين الطلاب المعنيين. ومع ذلك فإن مصداقية هذا المؤشر تعتمد أساسا على قدرة اختبارات القياس في تمييز مفهوم التعاطف الوجداني عن باقي المفاهيم الموجودة، فهل هناك إجماع في المؤلفات العلمية حول تعريف التعاطف الوجداني؟ يبدو أن التعاطف الوجداني مفهوم بسيط -يشعر الشخص ما يشعر به الآخر- ولكن كلما تعلمنا المزيد عن هذا المفهوم، كلما أصبح الأمر أكثر تعقيدا.³

¹ Daniel Favre, Permettre aux élèves de se remotiver pour les apprentissages, Séminaire académique de l'éducation prioritaire, p4, 2014.

² (Daniel Favre et al., Empathie, contagion émotionnelle et coupure par rapport aux émotions, Enfance Vol. 57, p365, 2005.

³ Hoffman, M. L, Interaction of affect and cognition in empathy, In C. E. Izard, J. Kagan, & R. B. Zajonc (Eds), Emotion, cognition and behavior, Cambridge, MA : Cambridge University Press, 1984.

يبدو أن تعريف هوفمان (Hoffman, 1984) والذي لا يمكن تبريره بعد الآن، فمنذ الظهور الحديث نسبياً (أواخر القرن التاسع عشر) لمفهوم التعاطف الوجداني، أفادت عدة أعمال والتي كُرِّست للبحث حول هذا المفهوم أنه يمكن أن ينطوي على معاني كثيرة ومختلفة جداً. في الواقع، لم يكن هناك إجماع في أي وقت مضى حول هذا المفهوم إلا أنه يمكن أن يعني حالياً:

عدوى انفعالية بسيطة.

قدرة معرفية لتمثّل وفهم مشاعر الآخرين.

قدرة معرفية لتمثّل جميع الحالات النفسية للآخر.

قدرة الإصغاء للآخر.

التفاعل عند معاناة الآخر.¹

2. المجال المفاهيمي للتعاطف الوجداني، العدوى الانفعالية والقطيعة الانفعالية:

1.2 . تعريف التعاطف الوجداني:

يعرفه قاموس "لاروس" بأنه قدرة حدسية وهو أن تضع نفسك مكان الآخر (l'autrui)، وتدرك ما يحس به. وكلمة «Empathie» تنقسم إلى قسمين:

"in" تعني باللاتينية "في" أو "بالداخل"، و "pathos" باليونانية تعني "الألم" أو "المعاناة".²

وفي علم النفس يشير مصطلح التعاطف الوجداني إلى القدرة على الشعور، بانفعالات، ومشاعر، وتجارب شخص آخر ووضع نفسه في مكان الآخر.³

كما جاء في معجم علم النفس والتربية ترجمة كلمة "Empathie" إلى "التعاطف الوجداني" وعرفه بأنه: "تجاوب الفرد للحالة النفسية لشخص آخر".⁴

هذا الاتجاه يستدعي كفاءة للفهم المعرفي للآخر، بينما يستبعد الخلط بين الأنا (soie) والآخر (l'autrui)، وأي مظاهر انفعالية شخصية وأي حكم أخلاقي. والتعاطف الوجداني لا يعني تقاسم مشاعر الآخرين أو انفعالاتهم، أو اتخاذ موقف فيما يتعلق بها.⁵

وفي الفلسفة يشير هذا المصطلح إلى الاستيعاب المباشر لعواطف ومشاعر الآخر.⁶

وفي هذا البحث سنتبنى هذه الترجمة الأخيرة أي "التعاطف الوجداني" وذلك لتجنب اللبس الذي قد يقع لتشابه ترجمته مع مصطلح "Sympathie" والذي وردت ترجمته في قاموس مصطلحات علم النفس بالتعاطف أيضاً.⁷

¹ مرجع سابق، Daniel Favre et al

² (<http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/empathie/28880>)

³ (<http://www.toupie.org/Dictionnaire/Empathie.htm>)

⁴ شوقي ضيف، معجم علم النفس والتربية، ج1، مجمع اللغة العربية الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، ص53، 2003

⁵ (<https://cvpcontrelaviolencepsychologique.com/2015/10/20/lempathie-pas-si-sympathique>)

⁶ (<http://www.toupie.org/Dictionnaire/Sympathisant.htm>)

⁷ حامد عبد السلام زهران، قاموس علم النفس، عالم الكتب القاهرة مصر ط 2، ص163، 1987

2.2 التعاطف الوجداني والمفاهيم ذات الصلة:

• التعاطف "Sympathie": تنقسم هذه الكلمة إلى قسمين:

"sym" تعني باللاتينية "مع"، و"pathos" باليونانية تعني "الألم" أو "المعاناة".

هو الشعور بالجابذية الغريزية لشخص ما. مثلا: أن تشعر بالتعاطف مع شخص ما دون معرفته من قبل. كما يشير التعاطف أيضا إلى أنه مجرد الشعور بالألم وسعادة شخص، أن تكون متوافق مع مشاعره للمشاركة في أفراحه وآلامه.¹

• العطف: يشير العطف إلى الوعي التام بمعاناة شخص آخر. ويمكن أن يظهر العطف من خلال الشعور بالشفقة والإحاح في المساعدة وان كان الشخص غير قادر على مساعدة الآخر، وقد يشير العطف إلى الرغبة في التخفيف من ألم الذات عندما تواجه المحن والمصائب.²

إن الإشكالية الرئيسية للتعاطف الوجداني تكمن في دقته، فإنك ترى المتعاطف يراجع الآخر مِرارًا للتحقق من دقة إحساسه بمعاناة الآخر، ومشاركته له في حين تكمن إشكالية العطف في أنه مجرد مفهوم حول كيفية اطلاع العاطف على واقع الخبرة الذاتية المباشرة للشخص لآخر.

• الإثارية أو الغيرية "Altruisme": هي استعداد أو سمة في الشخصية تؤدي إلى الاهتمام والتفاني وتكريس كل شيء لمساعدة الآخرين دون انتظار أي مقابل.³

كما عرفها معجم علم النفس والتربية: "حب الآخرين والاهتمام بهم".⁴

• الحنو والشفقة "Compassion": مشاعر قوية تتجاوز مع مشاعر شخص آخر وجدانيا، ويستلزم فهم الفرد لمشاعره وتقبلها إلى درجة أنه يستطيع أن يعول على خبرته الانفعالية لكي يستوعب معنى مشاعر الآخر سواء أكانت فرحا أم أسى.⁵ إذا كان من شأن الشفقة أن تزيل حدود الفردية لكي تنقل الفرد المتعاطف إلى الآخر الذي يتألم، فإن من شأن التعاطف الوجداني أن يشعر المتعاطف أن الآخر من حيث هو كائن بشري يملك قيمة مماثلة لتلك التي يملكها. فالتعاطف الوجداني ليس نتيجة لمشاركة وجدانية في الألم والسرور فحسب، بل هو أيضا كما يقول "شيرلر": "وظيفة حيوية هامة تشعر بأن ثمة تساويا في القيمة بين ذاتي، و"ذوات" الآخرين من حيث هم أشخاص مستقلين عني".⁶

3.2 . التطور التاريخي لمفهوم التعاطف الوجداني:

ظهر مصطلح "التعاطف الوجداني" أو "Empathie" للمرة الأولى كترجمة اقترحها تيتشنر (Titchener; 1909) لمصطلح بالألمانية: "Einfühlung" الذي اكتشفه ليبس (Lipps; 1903)، وهذا المفهوم في الواقع خاص بعلم النفس

¹ (<http://www.toupie.org/Dictionnaire/Sympathisant.htm>)

² أنس محمد شحادة، التعاطف والترحسية وعلاقتها بالرضا المهني لدى عينة من المرشدين النفسيين في مدارس محافظة دمشق الرسمية، رسالة ماجستير غير منشورة، ص22، 2016

³ (<http://www.toupie.org/Dictionnaire/Altruisme.htm>)

⁴ شوقي ضيف، نفس المرجع، ص 13

⁵ جابر عبد الحميد جابر و علاء الدين كفاقي، معجم علم النفس والطب النفسي، مطابع الزهراء للإعلام العربي القاهرة، مصر، ج 2، 1989، ص679

⁶ أنس محمد شحادة، المرجع نفسه، ص25

الجمال (la psychologie de l'esthétique) حيث كان يشير إلى كيفية ارتباط شخص بعمل فني (une œuvre d'art) وطريقة الوصول إلى معناه. وفي البداية جاءت ترجمته في القاموس الكبير للفلسفة وعلم النفس لبالدوين (Baldwin; 1902) بـ "sympathie esthétique" أي "التعاطف الجمالي"، لكن سرعان ما توسع هذا المنظور المحدد وفتح آفاق جديدة في البحث عن إشكالية فهم الآخر، ويعتبر ليس من الأوائل السابقين الذين بحثوا في هذا الموضوع في علم النفس للقرن العشرين وقد أثر فيما بعد على مفكرين مهمين مثل: فرويد (Freud)، سشيلر (Scheler)، ميد (Mead)، وحتى بياجيه (Piaget) (Daniel Favre et al., 2005, p366).

بالفعل فمصطلح التعاطف الوجداني "Empathie" متجذر في مفهوم أقدم منه وهو التعاطف "Sympathie" والأعمال التي قام بها ليس ما هي إلا نتيجة للدراسات التي قام بها من قبله كل من هيوم (Hume; 1739)، سميث (Smith; 1759)، بالدوين (Baldwin; 1897)، وكولي (Cooley; 1902) والمكرسة للبحث في هذا المفهوم. وبعبارة أخرى فإن مصطلح التعاطف الوجداني "Empathie" مهما كان معناه فهو في نهاية المطاف يعمل على تحديد المجال الذي كان يغطيه مصطلح التعاطف "la sympathie".

لكن هذا لا ينفي وجود خصائص مميزة ومحددة لكل منهما، وهذا ما أكده ويسبي (Wispé; 1986) "هدف التعاطف الوجداني هو الفهم. هدف التعاطف هو رفاة الآخر (le bien-être de l'autre)، وبمعنى آخر التعاطف الوجداني هو أسلوب المعرفة، أما التعاطف هو وسيلة للاجتماع مع الآخرين".¹ فالتعاطف يتميز بشكل رئيسي بالرغبة في التخفيف من معاناة الآخرين.² فهو عمل يؤتيه الفرد ويدرك فيه ما يفعله، فلا ينسى نفسه أو ذاته إنما مجرد تعاطف وقدرة على تفهم معاناة الآخرين والشعور بالشفقة حيالها، وليس انفعالاً بالأحداث وقد تكون في بعض الأحيان بشكل سلبي غير فعال. ودرجة الانفعال في حالة التعاطف تكون أقل مما عليه في التعاطف الوجداني ففي التعاطف يبدي بعض العطف والأسى دون أن يشعر بنفس شعوره. وقد جاء في تعريف مهربان وايبستين (Mehrabian & Epstein; 1972) للتعاطف الوجداني "إن الفرد يتفهم مشاعر الآخرين ويتبنى موقفهم ويتقمص مشاعرهم ثم يأخذ دور إيجابي تعبيراً عن ذلك التفهم والتبني للموقف".³

وهذا ما حدده ليس (Lipps; 1903) في أعماله المبكرة والتي بلورت تاريخياً مفهوم التعاطف، حيث تم استعماله وبشكل واسع من زاوية البعد العاطفي على عكس التعاطف الوجداني والذي أخذ استعماله المبكر كمفهوم جديد من زاوية البعد المعرفي وكذلك في الجانب الاكلينيكي. ثم جاء التحديد الثاني لهذا المفهوم أي التعاطف الوجداني على يد كل من فرويد (Freud; 1921) وروجرز (Rogers; 1957) مروراً بميد (Mead; 1934)، ديموند (Dymond; 1949) وكل المهتمين بدراسة الشخصية مثل: (Bruner & Tagiuri, 1954; Taft, 1955; Heider, 1958; Borke, 1971).

¹ Elisabeth Pacherie, E, L'empathie et ses degrés. In L'empathie, sous la dir. de A. Berthoz & G. Jorland, Paris: Editions Odile Jacob, p150, 2004.

² غيداء أبو خيران، غيداء أبو خيران، كيف نفهم مسألة "التعاطف" على المستوى الشخصي والعام، (2018)، من الموقع:

<https://www.noonpost.org/content/20451>

³ ابتسام رشيد اليازجي، الإيتار وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية لدى طالبات الجامعة الإسلامية بغزة، رسالة ماجستير غير منشورة، ص 57، 2001.

حيث اهتموا به على أنه وسيلة لمعرفة الآخر. وهذا التوجه المفاهيمي عكسته أيضا الاختبارات التي صممت من بعد لقياس التعاطف الوجداني (Dymond, 1949 ; Kerr & Speroff, 1954 ; Truax, 1967 ;Hogan, 1969) وتقدر الإشارة إلى أنه حتى من الجانب المعرفي، لا يزال التعاطف الوجداني يمثل دينامية تَمَثُّلِيَّةٌ لأن: «الشخص يبني نفسه من خلال الحالة النفسية لشخص آخر: construire pour soi-même l'état mental d'une autre personne»¹

ومع ستوتلاند (Stotland; 1969) ، ثم مهربان و ايبستين (Mehrabian & Epstein, 1972) كانت نقطة التحول الرئيسية لأن الاهتمام ستركز هذه المرة على الوجدان. ومن ثم تم التمييز بوضوح بين التعاطف المعرفي (Empathie cognitive) التعاطف الانفعالي (Empathie émotionnelle)، والتأكيد على ضرورة عدم الخلط الذي يمكن أن ينتج عن استخدام المصطلح نفسه لتعيين ظواهر ومواقف مختلفة، وعادة ما يتم تقديم التعاطف الوجداني على أنه له وجهان:

• **المكوّن المعرفي:** يسمح بتمثّل الوظيفة العقلية والعاطفية للآخر وهذا مهم للغاية، ويعني الفهم الكلي للحالة العقلية للآخرين. بمعنى آخر أنه يحقق:

- القدرة المعرفية لتمثّل جميع الحالات النفسية (les états mentaux) للآخر (l'autrui).
- قدرة معرفية لتمثّل ولنهم مشاعر الآخرين.

• **المكون الانفعالي أو العاطفي:** ويعني استجابة عاطفية مناسبة عند مواجهة الحالة الانفعالية للشخص الآخر موضوع التعاطف. مثل أن نتأثر عندما نرى شخص ما يعاني فنشاركه معاناته.²
وهناك مستويان اثنان للتعاطف الوجداني هما:

أ) **المستوى الأفقي:** ويُقصد به التعاطف مع جوانب حياة الفرد كاملة الإيجابي منها والمؤلم، وليس فقط مع الجانب المؤلم من حياة الفرد مثل: العواطف، والأفكار، والمشاعر، والرغبات، والأفراح، والأحزان.

ب) **المستوى العمودي:** ويُقصد به التعاطف مع الطبقات السطحية لحياة لشخصٍ آخر مثل: نوع العطر اليومي، اللباس والطبقات الأعمق منها مثل: معرفة الأمور الدقيقة وتفاصيل الحياة الخاصة بالشخص موضوع التعاطف.³

3. العدوى الانفعالية: La contagion émotionnelle

يمكن اعتبار العدوى الانفعالية كجزء من وظيفة تلقائية أولية موجودة عند الإنسان (استعداد بيولوجي فطري) وقد تأكد وجودها حتى عند الحيوان أيضا. (Roke :1979 ; Marcus, Telleen& Bryant:1982 ; Strayer: 1993) فهي تسمح بغزو انفعالات الآخر، والتي أكثر ما تميز وعلى وجه الخصوص حالات الاندماج والتعايش التي تسبق التعاطف الوجداني أثناء نمو الطفل.⁴

¹ (Daniel Favre et al., نفس المرجع, p368)

² أنس محمد شحادة، نفس المرجع، ص168

³ رياض العاسمي، علم النفس الإيجابي الإكلينيكي، الجزء الثاني، عمان دار الإعصار، ص96، 2015.

⁴ Daniel Favre, Transformer la violence des élèves, Dunod, Paris, p112, 2007.

في عام 1970، أظهر مارفن سيمنر (Marvin Simner) أن الأطفال (حديثي الولادة) البالغين من العمر خمسة أيام يبدؤون بالبكاء عندما يسمعون صغارا آخرين (حديثي الولادة هم كذلك) يكون. ثم في عام 1987، أثبتت سلسلة من الدراسات التي أجراها جريس مارتين وروسيل كلارك (Grace Martin & Russel Clark) أن الأطفال حديثي الولادة لا يستجيبون لبكاء الشمبانزي، أو إلى تسجيلات البكاء الخاصة بهم، أو لبكاء طفل أكبر سناً. إذن يتعلق الأمر بعدوى انفعالية أو استجابة انفعالية تجاه الآخرين والتي يمكن أن توحدنا معهم؟ لقد أظهرت هذه النتائج أن الأطفال (حديثي الولادة) يمتلكون الجانبين المهمين للتعبير عن التعاطف الوجداني: تقاسم العاطفة مع الأشخاص الذين يمكن أن نتوحد معهم والتمييز الضمني بين الأنا (soi) والآخر (autrui) نحن نتحدث إذن عن بداية الصحوة التعاطفية (éveil empathique).¹

تحدث العدوى الانفعالية إذن عندما لا يتعلق الأمر بفهم الحالة العاطفية للآخر، بل عند التحويل الانفعالي (transfert émotionnel) العفوي واللاإرادي. فتمتزج فيها صور وتمثيلات دوافعنا وانفعالاتنا مع صور وتمثيلات الآخرين من نفس الاستعداد الوجداني. وتبرز العدوى الانفعالية بشكل كبير في الحياة الاجتماعية (مثل: حالة الجماهير والحشود في الملاعب وأماكن العبادة "l'atmosphère euphorique" أو في حالة معاناة قريب).

4. القطيعة الانفعالية: La coupure par rapport aux émotions

هي عملية (processus) إبعاد أو إزاحة الانفعالات أو المشاعر أو الأحداث المخزنة والتي قد تتسبب في أغلب الأحيان وعن غير وعي في فقدان الرقابة الذاتية و/أو المعاناة. ولذلك فهي لا تتوافق مع التعاطف الوجداني تجاه الآخرين أو تجاه الذات ولكن يمكن أن تكون، وفي بعض الحالات (الطارئة) دفاعا مفيدا لعدوى انفعالية "خطيرة". إن الغياب الشبه كلي للتفهم والتوحد مع هذه الانفعالات عند الإحباط يمكن أن يقدم لنا مؤشر محتمل للسلوك الحَظَر أو السلوك العنيف، الذي يمكن فهمه بعد ذلك على أنه "تجاوز" انفعالي كبير.²

5. كيف نفهم الآخر؟

يطور الإنسان قدرته على تمثّل الحالات النفسية للآخر بواسطة نظام تصوري (conceptuel) يسمى نظرية العقل "théorie de l'esprit" عند المعرفيين والعقلنة "la mentalisation" عند التحليليين.

هذا الاستعداد يظهر مبكرا عند الأطفال، وهذا ما نلاحظه عندما يقوم الطفل بتقليد أي شخص أمامه ويدرك حتى دوافعه ورغباته، فقد أوضحت دراسة أجريت على مجموعة من الرضع (18 شهر) قام بها مالتزوف (Maltzof) أن الأطفال يستطيعون فهم أهدافنا حتى وإن فشلنا أو عجزنا في تحقيقها، إنهم يقلدون سلوك الآخرين حتى وإن كان في بعض الأحيان بدون هدف. مالتزوف (Maltzof) توصل إلى نتيجة وهي أن التقليد عند الأطفال مرتبط بادراك وفهم الآخر، باعتبار "أنه مثلي أنا: comme moi". بالنسبة لمالتزوف التقليد ينتج عن الوظيفة العصبية المرافقة له وهي المسؤولة عن توليد فهم واستيعاب الآخر.³

¹ Serge Tisseron, L'empathie au coeur du jeu social, Albin Michel Pris, p125,2010.

² Daniel Favre, المرجع نفسه, p112

³ Jacques Lecomte, L'empathie et ses effets, EMC (Elsevier masson SAS Paris), savoirs et soins infirmiers, p2, 2010.

1.5. الأعصاب المرآيا: ميكانيزم للتعاطف الوجداني؟

الأبحاث التي أجريت على التعاطف الوجداني تسارعت بشكل كبير في السنوات الأخيرة، وأخذت أهمية أكبر منذ منتصف التسعينات (1990) وذلك مع اكتشاف الأعصاب المرآيا من طرف فريق بحث ايطالي (Giacomo Rizzolatti) بكلية علم النفس بجامعة بارم.¹ فقد وجدوا أن هذه الخلايا لا تنشط عندما يقوم الشخص بانجاز عمل ما فقط، لكن أيضا عندما نرى شخصا آخر يقوم بنفس العمل، هذه الخلايا أكتشفت لأول مرة عند القردة ثم تم اكتشافها لدى الإنسان وهي تلعب دور جوهري في معرفة وفهم معنى وهدف أفعال وسلوكيات الآخرين (l'autrui)، وفي دراسات جديدة تمت بتقنية التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (RMF) بينت أنه عندما يلاحظ شخص حالة انفعالية (وجدانية) لشخص آخر مثل: (التوتر، الألم، الغضب،... إلخ) هذا ينشط أجزاء في الشبكة العصبية (réseau neuronal) والتي تقوم بمعالجة هذه الحالة النفسية.²

إن اكتشاف الأعصاب المرآيا هو جوهر ما توصلت إليه سيكولوجية الانفعالات (الوجدان)، وقد أحدثت ثورة كبيرة في فهم وتفسير خبايا النفس البشرية وهذا ما أكدته الأبحاث المقدمة من (Rizzolatti et al., 1988 ; di Pellegrino et al., 1992 ; Fadiga et al., 2000) في علم النفس المعرفي العصبي.³ إنها واحدة من الوظائف الجهورية للأعصاب المرآيا وهي تحقيق وتسهيل التعاطف الوجداني، هذا ما بينه جاليز (Vittorio Gallese ;2003) أحد مكتشفي هاته الأعصاب في مقال له بعنوان:

"l'hypothèse de la « diversité partagée » : des neurones miroir à l'empathie" حيث أكد أن الميكانيزم العصبي الذي توفره هذه الأعصاب المرآيا هو المسؤول الأول عن الروابط أو العرى التعاطفية "lien empathique" بين الأفراد. فمن الناحية المعرفية أثبت أنه عندما يقوم الآخر (l'autrui) بعمل ما فإنه يحفز بداخلنا ميكانيزم يسمى "ميكانيزم الرنين" (Mécanisme de résonance)، هذا الأخير يساعدنا على توقع حالته النفسية وحتى دوافعه ورغباته. كذلك من الناحية الوجدانية عند ملاحظتنا لشخص آخر في حالة انفعالية معينة: خوف، معاناة،... إلخ، تنشط خلايا تولد استجابات انفعالية تعاطفية. إن هذه الاستجابات ليست آلية، لأنها تتعلق جزئيا بالتقييم الذي يطوره الفرد تجاه الحالة التي تواجهه، فمثلا الاستجابة العصبية تكون أقل شدة عند الشخص الذي يعتقد أن الألم الذي يعانيه الآخر هو المعني بالتخفيف عنه.⁴

هذه الأعمال أثبتت أن دماغ الإنسان مهياً بروابط داخلية أو ما يسمى "التداخل" مع الآخر (l'interdépendance) والتي تمكننا من الوصول إلى الرنين مع من سنظهر التعاطف معهم. وحسب ريزولاتي

¹ Vittorio Gallese, The Roots of empathy : the shared manifold hypothesis and the neural basis of intersubjectivity, Psychopathology, p178, 2003.

² Gérard Jorland, La Recherche clinique :Empathie et thérapeutique, recherche en soins infirmiers n° 84, p45, 2006.

³ Giacomo Rizzolatti et Laila Craighero, The Mirror-Neuron system, Annual Review of neuroscience, , p179, 2004.

⁴ (J. Lecomte, نفس المرجع, p2)

(Rizzolatti): "إن أهم وظائف الأعصاب المرآيا هي تكوين الروابط التي توحدنا مع الآخر والمتحدرة في أعماقنا، فليس بما كان أن نتصور وجود "أنا - un moi" بدون "نحن - un nous".

إن هذه النتائج والتي تعتبر جوهر ما توصلت إليه فيسيولوجيا الأعصاب (Neurophysiologie) والتي كانت بالأمد القريب تقتصر فقط على تفسير الأعصاب الدماغية بمعزل عن دورها الوظيفي، ولكن مع ما توصلت إليه من نتائج في السنوات الأخيرة فتحت مجالات بحثية جديدة أو ما يسمى بعلم النفس العصبي-الاجتماعي (Neuroscience Social)، حيث تأسست في جانفي 2010 أول جمعية لعلم النفس العصبي-الاجتماعي Society for Neuroscience (Society)¹.

6. خاتمة:

إضافة إلى البعد المعرفي للتعاطف الوجداني والذي هو عبارة عن عملية معرفية قوامها الفهم والاستيعاب، تجعل الفرد يُقدر ويفهم مشاعر الآخر (l'autrui) ويستجيب لهذه المشاعر بشكلٍ مناسب مبني على فهمٍ ومعرفة دقيقة لحقيقة هذه المشاعر، حيثُ يشترط هذا النوع من التعاطف الملاحظة الدقيقة والإصغاء الجيد للطرف الآخر موضوع التعاطف. والبعد الثاني هو البعد الانفعالي (العاطفي) وهو عملية وجدانية قوامها العاطفة والانفعال وتظهر في بعدين أساسيين الأول منها هو الامتعاض الشخصي ومثاله الحزن والأسى، والثاني هو الاهتمام التعاطفي ومثاله العطف والشفقة على الشخص محل التعاطف، حيث يُطلق على أي مُساعدة يُقدمها الإيثار .

يوجد هناك من العلماء من أضاف البعد الثالث وهو البعد الاجتماعي أو ما يسمى بالإنفعالات الاجتماعية (les émotions dites sociales)، التي تميزنا نحن (nous-mêmes) ومثلها مشاعر الخزي والازدراء، الذنب والاعتزاز والتي تنطوي على حساسية لبعض المعايير الاجتماعية، فقد نشعر بالخزي أو بالذنب لأننا نعتقد مثلا أننا تعمدا الاستخفاف بالقيم والمعايير المشروعة والعكس صحيح، نشعر بالفخر والاعتزاز إذا حققنا مستوى عالٍ من الاحترام والتقدير لهذه المعايير . يلعب التعاطف الوجداني دوراً هاماً في استيعاب وتبني الفرد لسلوك ومعايير وقيم المجتمع. حيث يتم الكشف عنها من خلال مواقف قبول أو رفض الآخر لسلوكياتنا ومواقفنا. لذا يجب أن نكون حساسين تجاه عاطفة وانفعالات الآخر وإلى حقيقة أننا نحن هدف هذه العاطفة أو الانفعال. وهكذا فإن التعاطف الوجداني في شكله الإدراكي هو المؤشر الأول لأهمية المعايير الاجتماعية. لذلك فهو ليس مجرد أداة لمعرفة مشاعر الآخرين. بل هو أيضا أداة للبناء الذاتي للفرد ككائن اجتماعي يعيش في وسط معايير وقيم اجتماعية .

¹ مرجع السابق

7. قائمة المراجع :

باللغة العربية:

1. ابتسام رشيد حسن اليازجي، الإيثار وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية لدى طالبات الجامعة الإسلامية بغزة، رسالة ماجستير غير منشورة، (2001).
2. أنس محمد شحادة، التعاطف والترحسية وعلاقتهما بالرضا المهني لدى عينة من المرشدين النفسيين في مدارس محافظة دمشق الرسمية، رسالة ماجستير غير منشورة، (2016).
3. حامد عبد السلام زهران، قاموس علم النفس، عالم الكتب القاهرة مصر ط 2، (1987).
4. جابر عبد الحميد جابر و علاء الدين كفاي، معجم علم النفس والطب النفسي، مطابع الزهراء للإعلام العربي القاهرة، مصر، ج 2، (1989).
5. رياض العاسمي، علم النفس الإيجابي الإكلينيكي، الجزء الثاني، عمان - دار الإعصار، (2015).
6. شوقي ضيف، معجم علم النفس والتربية، ج1، مجمع اللغة العربية الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر (2003).
7. غيداء أبو خيران، كيف نفهم مسألة "التعاطف" على المستوى الشخصي والعام، (2018)، <https://www.noonpost.org/content/20451> (زيارة 2020/12/22)

باللغة الأجنبية:

8. Daniel Favre, Transformer la violence des élèves, Dunod, Paris, (2007).
9. Daniel Favre, Permettre aux élèves de se remotiver pour les apprentissages, Séminaire académique de l'éducation prioritaire, (2014).
10. Daniel Favre et al., Empathie, contagion émotionnelle et coupure par rapport aux émotions, Enfance (Vol. 57), (2005).
11. Elisabeth Pacherie, E, L'empathie et ses degrés. In L'empathie, sous la dir. de A. Berthoz & G. Jorland, Paris: Editions Odile Jacob, (2004).
12. Jacques Lecomte, L'empathie et ses effets, EMC (Elsevier masson SAS Paris), savoirs et soins infirmiers, (2010).
13. Hoffman, M. L, Interaction of affect and cognition in empathy, In C. E. Izard, J. Kagan, & R. B. Zajonc (Eds), Emotion, cognition and behavior, Cambridge, MA : Cambridge University Press, (1984).
14. Gérard Jorland, La Recherche clinique :Empathie et thérapeutique, recherche en soins infirmiers n° 84, (2006).
15. Giacomo Rizzolatti et Laila Craighero, The Mirror-Neuron system, Annual Review of neuroscience, (2004).
16. Serge Tisseron, L'empathie au coeur du jeu social , Albin Michel Pris, (2010).
17. Vittorio Gallese, The Roots of empathy : the shared manifold hypothesis and the neural basis of intersubjectivity, Psychopathology, (2003).
18. <https://cvpcontrolaviolencepsychologique.com/2015/10/20/lempathie-pas-si-sympathique./> (consulté le 23/12/2018)
19. <http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/empathie/28880> (consulté le 18/12/2018)
20. <http://www.toupie.org/Dictionnaire/Empathie.htm> (consulté le 25/12/2018)
21. <http://www.toupie.org/Dictionnaire/Altruisme.htm> (consulté le 25/12/2018)